التقديم والتأخير في الجملة الفعلية عند حسن فتح الباب "دراسة نحْوية"

إعداد/ خديجة محمد الطيب

المقدمة

إن النص الشعري لا يستمد دلالته من العدم ، وإنما تكمن جمالياته في تحولات الأداء اللغوي الذي يجسد حضور اللغة من خلال العلاقات التي تتشابك في دائرة النص بين الدلالة والتركيب ، وحتي يتمكن الشاعر من استكشاف المعاني الكامنة في بنية الكلمات ، لابد له من خرق معيارية اللغة وتجاوز ثباتها إلي مجال أكثر انفتاحاً.

والتقديم والتأخير من الظواهر التي تبين مدى تحكم الشاعر في أدواته الفنية ؛ حيث تعتمد علي وضع الكلمات والمفردات في موضعها الصحيح الذي يؤدي دوره في إبراز معنى معين ، فإذا أحسن الشاعر توظيف هذه الظاهرة ، جاء العمل مكتملاً في ترتيب معناه وبيان أثره في المتلقي والقارئ ، لذلك نري لكل شاعر طريقة معينة في استخدام هذه الظاهرة.

وسوف تقوم الباحثة بدراسة ظاهرة التقديم والتأخير في الجملة الفعلية عند "حسن فتح الباب" حيث وجدت الباحثة أن التقديم والتأخير يمثلان ظاهرة تستحق الدراسة في شعر "حسن فتح الباب"

إن هذا الجانب – التقديم والتأخير – له أهمية بالغة في إعادة تركيب اللغة ونقلها من المستوى العادي إلي المستوى الفني من خلال تبادل المواقع بين عناصر التركيب المتعددة حيث يقوم "بإعادة ترتيب مواقع الأدلة حسب قوانين لا يقبلها النثر ، ويلعب دورًا كبيرًا في إدخال القارئ إلي متاهة تتسع وتضيق من قصيدة إلى أخرى ، ومن شاعر إلى آخر"[١]

في هذا البحث سوف تتناول الباحثة

- التقديم والتأخير في النظرية العربية التراثية عند كلاً من:
  - سيبويه.
  - ابن جني.
- التقديم والتأخير عند حسن فتح الباب.

وأخيراً خاتمة بأهم النتائج.

ذكروا النحاة أن الأصل في بناء الجملة الفعلية تبدأ بفعل ثم فاعل ، وقد يرد واحد من المفعولات بحسب القصد.

وقد لاحظ النحاة أنَّ الجملة قد تخرج عن هذا البناء لأغراض معنوية ، فيتقدم المفعول على الفاعل ، أو المفعول على الفعل والفاعل ، وقد يتقدم أيضاً الخبر على المبتدأ ، وذكروا أن هذا التقديم لا يأتي من غير قصد ، أو بلا ضوابط ، كما أنه لا يتم إلا إذا قصده المتكلم لغرض في نفسه.

رأي سيبويه في ظاهرة التقديم والتأخير.

وكان سيبويه أبرز النحاة الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة ، وأبان أسرارها ، فقد ذكر في أكثر من موضع مواطن يجوز فيها التقديم والتأخير ، ومواطن أخرى لا يجوز فيها ذلك ، كما كشف عن الأغراض التي يقصدها المتكلم عند التقديم ، وكان سبَّاقًا في كشفه عن أهم غرض من أغراض التقديم قال: "هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلي مفعول ، وذلك قولك: ضرب عبدالله زيدًا ، فعبد الله ارتفع هنا ، كما ارتفع في (ذَهَبَ) وشغلت (ضرب) به كما شُغلت به ذَهَبَ ، انتصب زيدٌ لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل ، فإنْ قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك ضرب زيدًا عبدُ الله ؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم تُرِدْ أن تشغل الفعل بأوّل منه ، وإن كان مؤخرًا في اللفظ ، فمن ثَّم كان حدَّ اللفظ أن يكون فيه مقدمًا ، وهو عربي جيد كثير ، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعْنَي ، وإنْ كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"[٢]

رأي "ابن جني" في ظاهرة التقديم والتأخير وقد جعل "ابن جني" التقديم والتأخير علي ضربين.

أحدهما **والآخر**

يقبله القياس يسهله الاضطرار

وأوضح ذلك بقوله:

"الأول كتقديم المفعول على الفاعل تارة ، وعلى الفعل الناصبة أخرى ، كضرب زيدًا عمرو وزيداً ضرب عمرو ، وكذلك الظرف ، نحو قام عندك زيد ، وعند قام زيد ، وسار يوم الجمعة جعفر ، ويوم الجمعة سار جعفر ، وكذلك الحال ، نحو: جاء ضاحكًا زيد. وضاحكًا جاء زيد ، وكذلك الاستثناء نحو ما قام إلا زيدًا أحد ، ولا يجوز تقديم المستثنى على الفعل الناصبة له ، لو قلت: إلا زيدًا قام القوم ، لم يجز لمضارعة الاستثناء البدل ، ألا تراك تقول: "ما قام أحد إلا زيدًا ، وإلا زيد ، والمعني واحد ، فلما جرى الاستثناء مجرى البدل امتنع التقديم"[٣]

وقد حظي تقديم المفعول به بعناية خاصة من علماء النحو ، وذلك لكثرة مجيئه في النصوص القرآنية ، ولاسيما مجيئه في فاتحة الكتاب في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ٥ وقد أوضح ابن جني الغرض من تقديم المفعول على الفاعل قائلاً: "إن أصل وضع المفعول ان يكون فضله ، وبعد الفاعل ، كـ (ضرب زيد عمرًا) ، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل فقالوا: ضرب عمرًا زيد ؛ فإن زادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبة ؛ فقالوا: عمرًا ضرب زيدٌ ؛ فإن تظاهرت العناية به عقدوه على أنه رب الجملة".

وتجاوزوا به حد كونه فضلة فقالوا: عمرو ضرب زيد ، فحذفوا ضميره ونووه ولم ينصبوه علي ظاهر أمره رغبة به عن صورة الفضلة... ؛ فإن قلت: فقد قالوا: زيدًا ضربته ، فنصبوه ، وإن كانوا قد أعادوا عليه ضميرًا يشغل الفعل بعده عنه ، حتى أضمروا له فعلاً ينصبه ، أو مع هذا فالرفع فيه أقوى وأعرب... قيل هذا وإن كانوا على ما ذكرته فإن فيه غرضًا من موضع آخر ، وذلك أنه إذا نصب على ما ذكرت فإنه لا يعدم دليل العناية به ، وهو تقديمه في اللفظ منصوبًا ، وهذه صورة انتصاب الفضلة مقدمة لتدل على قوة العناية به ولاسيما والفعل الناصب له لا يظهر أبدًا مع تفسيره ، فصار كأن هذه الفعل الظاهر هو الذي نصبه ، وكذلك يقول الكوفيون"[٤]

وظهر من كلام سيبويه وابن جني أن في دراستهم للتقديم والتأخير يراعون ، كل ما يتعلق بصحة بناء الجملة فلا يقدمون إلا ما يقبله القياس ، لأنهم كانوا يهتمون بسلامة الكلام وفصاحته

، ولم يعنهم أن للتقديم أغراضًا يقصدها المتكلم لا يمكن التعبير عنها إلا بالتقديم كالعناية بالمقدم وتخصيصه دون غيره.

التقديم والتأخير في الجملة الفعلية عند "حسن فتح الباب"

من خلال تتبع شعر "حسن فتح الباب" وجدت الباحثة أن ظاهرة التقديم والتأخير يمثلان ظاهرة استغلها الشاعر لإثراء دلالته وتعميقها.

"التقديم والتأخير وسيلة إبلاغية تميز لغة الشعر عن النسق المعياري / التقعيدي ، وهذا الانحراف – الذيبدور في مجمله حول دلالة التخصيص – يلفت انتباه المتلقي نحو ما قدمه المبدع أو أخره ، فضلاً عن دوره في إبراز الدلالة التي يتغياها المبدع ، وأن كنا لا نقصد إلى ربط أية ظاهرة أسلوبية بدلالات ثابتة محددة ، إذ إن السياق هو العامل الأساسي في توجيه الدلالة وتوضيحها ، لأنه "يتيح لنا المدى والكيفية التي تتضح من خلالها لغة الشاعر بما فيها من سمات انحرافية ، مع ملاحظة كيفية استخدام الأديب للخصائص المتعارف عليها عمومًا لإحداث تأثير خاص"(٥)

ولقد جاء تعامل الشاعر مع ظاهرة التقديم والتأخير على أنماط متعددة منها:

١- تأخير الفعل وتقديم الفاعل

٢- تأخير الفاعل وتقديم المفعول

٣- تقديم الجار والمجرور

أنماط التقديم والتأخير عند حسن فتح الباب

على الفعل | على الفاعل | على المفعول

١) تأخير الفعل وتقديم الفاعل

أعتدنا في بناء الجملة في اللغة العربية على نظام مألوف في ترتيب أجزائها ، فالجملة الفعلية مثلاً يتصدرها الفعل ، ثم يأتي الفاعل ، والمكملات أو التوابع.

وفي هذه الدراسة نرى بناء الجملة على غير النسق المعروف فيتقدم ركن على آخر ، ويتأخر ما كان حقه التقديم وذلك تبعًا لحاجة المعنى ، وتحقيقًا لاعتبارات دعت إلى ذلك.

ومن ذلك قول الشاعر:

الأفق غمامات بنفسج
وشراع في الموج يصفق
وضلوع ضاوية تخفق
وشفاه بالحب ترقرق
ألحان العصفور الأزرق[٦]

أحد أشكال التقديم في شعر "حسن فتح الباب" ؛ حيث يتقدم "المسند إليه/ الفاعل" على "الفعل" استجابة لداعي المعنى وتعبيرًا عن الاهتمام بالفاعل أكثر من الاهتمام بالفعل ، حيث "يكون التقديم لما هو أهم وأولى بالعناية والاهتمام"[٧]

ونفترض أننا قلنا
يصفق شراع في الموج
وتخفق ضلوع ضاوية
ترقرق شفاه بالحب

لأصبحت أمامنا ثلاث جمل فعلية في ترتيبها الطبيعي ، ولكن كلمة "الشراع" ، "والضلوع" ، "والشفاه"

خصصت بشيء من الاهتمام فقدمت على أنها فاعل وتأخر الفعل رغبة من الشاعر في إلقاء الضوء والاهتمام على الفاعل ، وهو بهذا الصنيع يجعل من الدلالة المطروحة أكثر تأثيرًا في النفس وتمثلاً على مستوى التركيب.

فالشاعر يريد أن يُظهر أبعاد فرحته في لوحة فنية تتآزر خطوطها وألوانها في رسم ملامح البهجة علي كل شيء ، فالشراع يصفق طربًا ، والضلوع تخفق شوقًا والشفاه تشدو نغمًا بألحان العصفور الأزرق / الأمل والمستقبل ، وإبراز هذه الحالة النفسية يستدعي تسليط

الضوء على الباعث لها "الفاعل" ، وذلك بتكرار الإسناد ، فالأفعال "يصفق ، وتخفق ، وترقرق" أسندت إلى الضمير المستتر مرة ، وإلى الاسم الظاهر المقدم مرة أخرى ، وبتكرار الإسناد تتنامى الدلالة وترسخ في ذهن المتلقي.

٢) تأخير الفاعل وتقديم المفعول

ويولي ابن جني تقديم المفعول عناية خاصة فيقول "إن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة وبعد الفاعل ، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل ، وتجاوزوا به حد كونه فضلة ، فصاغوا الفعل له ، وبنوه على أنه مخصوص به ، وألغوا ذكر الفاعل ، وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة لأنها تجعل الجملة تابعة في المعنى لها ، لأن صورة انتصاب الفضلة مقدمة لتدل على قوة العناية بها"[٨]

ومن المتفق عليه أن كل عناصر الجملة معرضة لتغيير مكانها ، بحيث تساعد في معرفة البُنى الدلالية الباطنية التي تؤدي إلى تبادل التراكيب مواقعها في بنية النص.

يستخدم الشاعر – إذن – اللغة استخدامًا خاصًا فيؤلف بين الكلمات لإيجاد أنظمة وتراكيب تساعده في تفجير الطاقة الشعرية المراد الإفصاح عنها.

وفي تقديم المفعول على الفاعل يقول الشاعر:

الخوف تغمر السفوح والوهاد
ظلاله الكئيبة
وتعصر القلوب كفه الخضيبه
والقرية الخضراء في سواد
ولم يزل صديقي الوديع
تصافح التراب قبضته
وغيمة الأسى تظل جبهته[٩]

في المقطع السابق قدم الشاعر المفعول به (السفوح ، والقلوب ، والتراب) على الفاعل (ظلاله ، وكفه ، والتراب) مما يؤكد أن المعطيات والأبنية اللغوية تخضع لطبيعة التجربة الشعرية ؛ حيث تكون الأهمية موجهة إلى المفعول به حيث يحتل مركز الصدارة على السطح ، وهذه الحالة موازية للعناية به في العمق ، حيث ينتشر الخوف ليغمر كل شيء (السفوح والوهاد) ويعصر القلوب ويعلو الأسى الوجوه فالسياق –وحده– لم يحقق ما حققه تقديم المفعول على الفاعل من تركيز الاهتمام وتوجيه النظر إليه.

٣) تقديم الجار والمجرور

والحقيقة أن "الجار والمجرور من المعطيات النحوية التي تلعب دورًا مهمًا في تكوين الجمل في اللغة العربية ، ذلك لما تتمتع به من حرية الحركة داخل الجملة ، والشاعر المبدع هو الذي يستغل هذه الحرية ليقدم تراكيب خاصة متميزة تباين ما تعارفت عليه الأوساط الشعرية"(١٠)

تقديم الجار والمجرور ورد على اشكال مختلفة ومتنوعة في شعر "حسن فتح الباب" منها:–

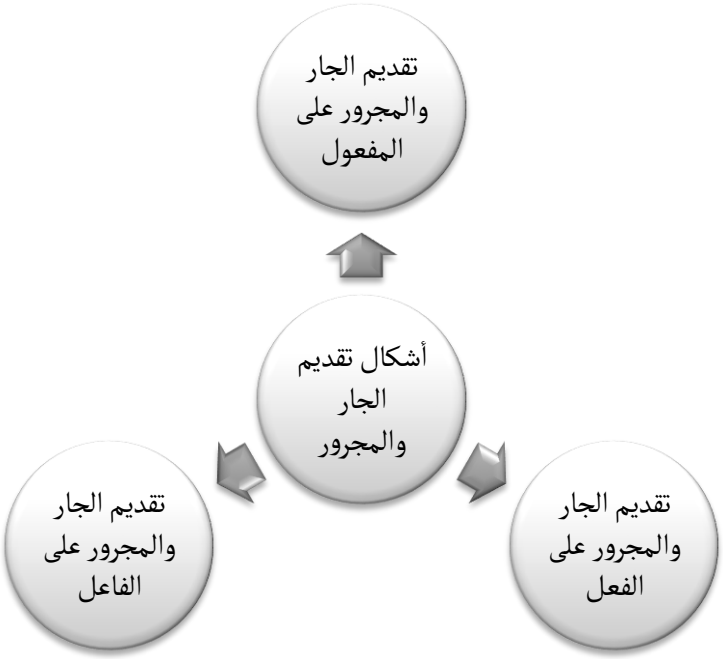

تقديم الجار والمجرور على الفعل:

قال الشاعر:

على جناحي غيمة المساء
مضى يشق أبحر الهموم
يحمل للأحباب باقة الأمل

والجرح في فؤاده لم يندمل
منذ تولي حلمه القديم[١١]

بما أن "المساء وهمومه" ، و"القلب بجراحه" هما عماد تجربة الشاعر النفسية فقد سلبهما موقعهما على اعتبار الهموم تالية للمساء ، والنزف تابع للجرح وبذلك قدم الشاعر الجار والمجرور على الفعل مما أدى إلى أثارة وجدان المتلقي نحو ما قدمه.

تقديم الجار والمجرور على الفاعل
وذلك قول الشاعر:
يا بلادي لا يشب صفوك في الأسحار غيم
لا... ولا تنزل بواديك تباريح الشقاء
قد كفاك اليوم ما أضناك أمس
رحلة العاني وليل الغرباء[١٢]

قدم الشاعر "حسن فتح الباب" الجار والمجرور في السطر الأول (في الأسحار) علي الفاعل (غيم).

وكذلك قدم الجار والمجرور (بواديك في السطر الثاني علي الفاعل (تباريح) ، وفي الأولى جاء التقديم دالاً على الزمان وفي الأخرى جاء التقديم دالاً على المكان) فالأسحار هي زمن الحدث والوادي مكانه.

لقد أدى التقديم إلى إحكام التركيب وإثراء دلالته.

تقديم الجار والمجرور علي المفعول.

يقول "حسن فتح الباب"
ونحن في ديارنا نجوع
ويوقد الخوان من أنفسنا شموع

ويصنع الطغاة من أعوادنا مشانق
ومن ضلوعنا مناجل
ليحصدوا في أرضنا الربيع
ويحجبوا وجه الصباح(١٣)

إن اختيار الشاعر لهذه الأساليب التي تحتوي على الجار والمجرور وسيلة للتعبير كان بدافع من المعنى الذي يسعى للإسهام في إبرازه كل حرف من الحروف السابقة ، فمجئ "من" لبيان الجنس على اعتبار أن الخونة الطغاة يشعلون من زفرات الضحايا شموعاً ، ويصنعون من أجسادهم الواهية الذابلة حبالاً يلفونها حول أعناقهم ، ليس هذا فحسب ، وإنما تزداد المأساة عمقًا حين يستلون من ضلوعهم مناجل يحصدون بها – في أرضهم – الامل.

إن تقديم الشاعر الجار والمجرور على الفعل والفاعل والمفعول يدل على أن اهتمام الشاعر موجه إلى ما بعد الحدث أكثر منه إلى الحدث نفسه.

الخاتمة والنتائج

بعد إلقاء الضوء على التقديم والتأخير عند حسن فتح الباب من خلال الجملة الفعلية. يمكن استخلاص الآتي:-

- يعد التقديم والتأخير من الظواهر النحوية الواضحة في أسلوب حسن فتح الباب والتي تمثل أبرز مظاهر الانحراف التي تتميز بها لغة الشعر عن النسق المألوف ، والتي جعلها الشاعر عاملاً من عوامل إثارة المتلقي لمشاركته في الوقوف علي جماليات النص الأدبي.

- الشاعر المبدع من يمتلك القدرة على تحطيم الشكل المألوف للألفاظ للوصول إلى تراكيب جديدة مفعمة بالإيحاءات الجديدة.

- أفاد التقديم والتأخير في الجملة الفعلية عند حسن فتح الباب ما يأتي:-

- تقديم الفاعل على الفعل أفاد ، جعل الدلالة المطروحة أكثر وجودًا وتمثلاً على مستوي التركيب.
- تقديم المفعول على الفاعل أفاد الاختصاص وتوجيه النظر إلى المفعول والاهتمام به.
- تقديم الجار والمجرور على الجملة الفعلية مظهر يتيح للشاعر تنسيق الدوال داخل الجملة لتستوعب التجربة الشعرية بأكملها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١) الأعمال الكاملة للشاعر حسن فتح الباب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة.

ثانياً: المراجع

١) ابن جني المحتسب ، تحقيق علي النجدي وعبدالفتاح شلبي ، طبعة المجلس الأعلي للشئون الإسلامية القاهرة.

٢) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، الهيئة العامة للكتاب.

٣) رمضان صادق ، شعر بن الفارض ، دار المعارف القاهرة.

٤) سيبويه (أبي عمرو عثمان بن قنبر) ، الكتاب تحقيق محمد عبدالسلام هارون ، دار الجيل.

٥) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الأعجاز ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة.

٦) محمد بنيس: الشاعر المغربي المعاصر ، دراسة بنيوية تكوينية ، ط٢ ، دار التنوير للطبع والنشر ، بيروت.

٧) محمد عبدالمطلب ، البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

---

(١)محمد بنيس: الشعر المغربي المعاصر "دراسة بنيوية تكوينية" ، ط٢ ، دار التنوير للطبع والنشر ، بيروت ، ص ١٨٥.

(٢) سيبويه ، الكتاب ، تحقيق محمد عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، ص (٣٤/١)

(٣) الخصائص لابن جني ٣٨٢/٣

(٤) ابن جني: المحتسب – تحقيق: علي النجدي وعبدالفتاح شلبي – طبعة المجلس الأعلي للشئون الإسلامية – الجزء الأول ، القاهرة ، ص (٦٥-٦٦)

(٥) محمد عبدالمطلب: البلاغة والأسلوبية ، ص ٣٢٨

(٦) الأعمال الكاملة: المجلد الأول ، ص (٤٤ ، ٤٥).

(٧) عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز – تحقيق: محمود محمد شاكر – ط٢ ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ١٠٦.

(٨) ابن جني: المحتسب ، مرجع سابق ، ص (٦٥)

(٩) الأعمال الكاملة: المجلد الأول ، ص (١٢٠ – ١٢١)

(١٠) رمضان صادق: شعر بن الفارق ص ١٢٠

(١١) الأعمال الكاملة: المجلد الأول ، ص (١٥٣)

(١٢) الأعمال الكاملة: المجلد الثاني ، ص (٥٦٦)

(١٣) الأعمال الكاملة: المجلد الأول ، ص (٦٨)